

فاطمة بنت عبد الملك

ربما كان حديث ابن ابي ربيعة مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان
أظرف ما مر بنا من الأحاديث ، لما فيه من المفاجآت التي تمثل دهاء
ربات القصور في ذلك الحين . فقد روى صاحب الاغانى انها حجت
فكتب الحجاج الى عمر بن ابي ربيعة يتوعده ان ذكرها في شعره بكل
مكروه وكانت تحب أن يقول فيها شيئاً وتعرض لذلك ، فلم يفعل
خوفاً من الحجاج . فلما قضت حجها خرجت فمرَّ بها رجل فقالت له :
من انت ؟ قال من أهل مكة . قالت : عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله
قال ولم ذلك ؟ قالت : حججت فدخلت مكة ومعى من الجوارى ما لم تر
الأعين مثلهن . فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره
اياتا نلهو بها في الطريق في سفرنا . قال : فاني لا اراه إلا قد فعل
قالت فأتنا بشيء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير . فضى اليها
فأخبره . فقال : لقد فعلت ، واكن أحب ان تكتم على ، قال
أفعل . فأنشده

راع الفؤاد تفرق الاحباب يوم الرحيل فهاج لى أطرابي
فظلمت مكتئباً أكفكف عبرةً سجماً تفيض كوابل الأسراب

لما تنادوا للرحيل وقرَّبوا بُزُلَ الجمالِ لطيَّةٍ وذهابِ
 كاد الأسي يقضى عليك صبايةً والوجه منك لبيزِ إلفك كابِ
 وانشده :

هاج قاي تذكر الأحيابِ واعترتني نوائبِ الاطرابِ
 وهى قصيدة طويلة ذكر صاحب الاغانى فى اخبار حنين ان ابن
 ابي ربيعة قالها فى فاطمة بنت عبد الملك وذكر فى اخبار الشاعر نفسه
 انه قالها فى الثريا بنت على . فلننقيد ذلك فانه يؤيد ماأشرنا اليه من ان ابن
 ابي ربيعة غير صادق الحب ، وانه ينقل شعره من جميلة الى جميلة وفقاً
 لمقتضيات الظروف ، وان الرواة وضعوا من أقاصيص عشقه ماشاء لهم
 الخيال ، تزويجاً لأنفس السامعين من الخلفاء والأمراء

*
 *
 *

مسابرها لعمر على فحك الخرائر

ولنذكر تلك القصة الطريفة التى رواها صاحب الاغانى فى اخبار
 ابن ابي ربيعة ، اذ نقل انه كان جالسا بمنى فى فناء مضر به وغلمانة حوله ،
 فأقبلت امرأة برزة عليها أثر النعمة ، فسلمت فردَّ عليها السلام ، فقالت
 له : انت عمر بن ابي ربيعة ؟ فقال لها : انا هو ، فما حاجتك ؟ قالت له :
 حياك الله وقرَّبك هل لك فى محادثة أحسن الناس وجهاً ، وأتمهم خلقاً ،

وأكملهم ادبا ، وأشرفهم حسبا ؟ قال : ما أحبَّ الىَّ ذلك ، قالت : على شرط . قال : قولى . قالت : تمكّنى من عينيكَ فأشدُّها وأقوذك حتى اذا توسّطت الموضوع الذى اريد حللت الشدِّ ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهى بك الى مضر بك . قال : شأنك . ففعلت ذلك به فلما انتهت به الى المضر الذى ارادت ، كشفت عن وجهه ، فرأى امرأة على كرسى لم ير مثله قط جمالاً وكمالاً . فسلم وجلس . فقالت : أنت عمر بن ابى ربيعة ؟ قال : انا عمر . قالت انت الفاضح للحرائر؟ قال : وما ذلك ، جعلنى الله فداك ، قالت : أأنت القائل :

قالت وعيش ابى وحرمة والدى لأنبيهن الحى ان لم تخرج
نخرجت خوف يمينها فتبسّمت فعلمت أن يمينها لم تخرج^(١)
فتناولت رأسى لتعرف مسّه بمخضب الأُطراف غير مُشنج^(٢)
فلثمت فاهها آخذاً بقرونها شرب النزيف يبرد ماء الحشرج^(٣)

ثم قالت : قم فاخرج عنى ، ثم قامت من مجلسها وجاءت المرأة فشدّت عينيهِ وقد دخله من الكآبة والحزن ما لا طاقة له به ، وبات

(١) من الحرج وهو الضيق ، يريد انها لم تحلف معترمة الحرص على اليمن
(٢) مشنج : متقبض (٣) القرون : أفرع الشعر - والنزيف : كالمنزوف هو الظآن الذى جف لسانه من العطش ، أو هو الحموم الذى منع الماء - والحشرج : النقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو ويطيب

ليته . فلما أصبح اذا هو بها فقالت : هل لك في الود ؟ فقال شأنك
فعلت به مثل فعلها بالأمس حتى انتهت به إلى الموضع ، فلما دخل اذا
بتلك الفتاة على كرسى . فقالت : إيه يا فضاح الحرائر ! قال : بماذا ؟
جعلني الله فداك ! قالت : بقولك :

وناهدة الشدين قلت لها اتكى على الرمل من جبانة لم توسد
فقالت على اسم الله أمرك طاعة وان كنت قد كلفت ما لم أعود

فلما دنا الإصباح قالت فضحتني فقم غير مطرود وان شئت فازدد
ثم قالت : قم فاخرج عني ! فقام فخرج ثم رُدَّ ، فقالت له : لولا وشك

الرحيل ، وخوف الفوت ، ومحبتى لمناجاتك والاستكثار من محادثتك ،
لأقصيتك . هات الآن كلمنى وحدتى وأنشدنى ، فيكلم آدب الناس

واعلمهم بكل شيء . ثم نهضت وأبطأت العجوز وخلا له البيت ، فأخذ
ينظر فاذا هو بتور فيه خلق^(١) فأدخل يده فيه ثم خباها في رُده^(٢)

وجاءت تلك العجوز فشددت عينيه ونهضت به تقوده حتى إذا صار على
باب المضرب أخرج يده فضرب بها على المضرب ثم صار إلى مضربه

(١) التور : انا صغير . قال صاحب الاساس ومررت بباب العمرة على امرأة تقول
لجارتها : أعيريني تويرتك . سمي بذلك لانه يتعاور ويردد ، أو سمي بالتور
وهو الرسول الذى يتردد ويدور بين العشاق . ومأخذه من التارة لانه تارة عند
هذا وتارة عند هذا (٢) الردن : الكم

(٢٣٠)

فدعا غامانه فقال : أَيْكُم يَقْفَى عَلَى بَابِ مَضْرَبٍ عَلَيْهِ خُلُوقٌ كَأَنَّهُ أُثْرَكَفَ
فَهُوَّحَرٌ ، وَلَهُ خَمْسَمِائَةٌ دِرْهَمٌ . فَلَمْ يَأْبَثْ أَنْ جَاءَ بَعْضُهُمْ فَقَالَ : قُمْ ، فَهَضْ
مَعَهُ فَإِذَا هُوَ بِالْكَفِّ طَرِيَّةٌ ، وَإِذَا الْمَضْرَبُ مَضْرَبُ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ
ابْنِ مَرْوَانَ ، فَأَخَذَتْ فِي أُهْبَةِ الرَّحِيلِ ، فَلَمَّا نَفَرَتْ نَفَرَ مَعَهَا ، فَبَصُرَتْ
فِي طَرِيقِهَا بِقَبَابٍ وَمَضْرَبٍ وَهَيْئَةٍ جَمِيلَةٍ ، فَسَأَلَتْ عَنْ ذَلِكَ فَقِيلَ لَهَا :
هَذَا عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، فَسَاءَ هَا الْأَمْرُ ، وَقَالَتْ لِلْعَجُوزِ الَّتِي كَانَتْ تَرْسَاهَا
إِلَيْهِ : قَوْلِي لَهُ نَشُدُّكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ أَنْ تَصْحَبِنِي ، وَيَحْكُ ! مَا شَأْنُكَ وَمَا
الَّذِي تَرِيدُ ؟ انصرف ولا تفضحني وتُشِيطَ بِدِيمِكَ ^(١) ، فَسَارَتْ الْعَجُوزُ
إِلَيْهِ فَأَدَّتْ مَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ ، فَقَالَ : لَسْتُ بِمَنْصُوفٍ أَوْ تَوْجِّهَ إِلَى
بِقَمِيصِهَا الَّذِي يَلِي جِلْدَهَا ، فَأَخْبَرْتَهَا ففعلت ووجهت إليه بقميص من
افزاده ذلك شغفًا ، ولم يزل يتبعهم لا يخالطهم حتى إذا صاروا على
ن دمشق انصرف وقال في ذلك :

ضاق الغداة بحاجتي صدرى

ويئست بعد تقارب الأمر

وذكرت فاطمة التي علقتها

عرَضًا فيا لحوادث الدهر

(١) أشاط دمه ویدمه : أهدره وعرض نفسه للقتل

مَمْكُورَةٌ رَدَعُ الْعَبِيرِ بِهَا جَمُّ الْعِظَامِ لَطِيفَةٌ الْخَصْرُ (١)
 وَكَأَنَّ فَاهَا عِنْدَ رَقْدَتِهَا تَجْرِي عَلَيْهِ سُلاَفَةُ الْحَجَرِ
 شَرِيقًا بَدْوَبُ الشَّهْدِ يَخْلَطُهُ بِالزَّنَجِيلِ وَفَأَرَةُ التَّجْرِ (٢)
 عَرَضْتُ لَنَا بِالْخَيْفِ فِي بَثْرِ
 نَقَرُوا السَّكَبَاتِ وَنَاضِرَ السُّدْرِ (٣)
 وَجَلَّتْ أَسِيلاً يَوْمَ ذِي خَشْبٍ رِيَّانٌ مِثْلَ فُجَاءَةِ الْبَدْرِ (٤)
 فَسَبَتْ فُؤَادِي إِذْ عَرَضَتْ لَهَا يَوْمَ الرَّحِيلِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ
 بِمُزَيْنٍ رَدَعُ الْعَبِيرِ بِهِ حَسَنَ التَّرَائِبِ وَاضِحَ النَجْرِ (٥)
 وَبَجِيدِ آدَمَ شَادِنِ خَرِقٍ يَرعى الرِّيَاضَ بِيَلَدَةِ قَفَرٍ (٦)

- (١) الممكورة : الحسنة المستديرة الساقين المحكمة التكوين ، والردع أثر الطيب في الجسد - والعبير الزعفران أو اخلاط من الطيب - وجم العظام : دقيقتها مكتنزة اللحم والقياس أن يقول : جاء ، ولكن ابن أبي ربيعة كثير التساهل في ضوابط العربية
- (٢) التجر : جمع تاجر والفأرة ناجة المسك . قال صاحب القاموس : أو الصواب إيراد فارة المسك في فور لفوران رائحتها أو يجوز همزها لأنها على هيئة الفأرة . وقيل لأعرابي : أتهمز الفأرة؟ فقال : الهرة تهمزها . وغرض الشاعر من هذا البيت والذي قبله وصف ثغر المحبوبة بطيب النكهة وعدوية المذاق (٣) تقرو : تتبع - والسكبات كسحاب النضيج من ثمر الأراك - والسدر : شجر النبق (٤) الأسيل : الرقيق - وذو خشب بضمين واد على مسيرة ليلة من المدينة له ذكر كثير في الحديث والمغازي
- (٥) الترائب جمع تربة وهي موضع القلادة من الصدر (٦) الجيد : العنق - والادم من الظباء ما فيه أدمة وهو لون مشرب بياضا ، وهي في الإنسان السمرة فيقال : رجل آدم اللون أي أسمره - والشادن : الظبي الذي شدن أي قوى واستغنى عن أمه وهو أول العهد بالمرح وجنون الشباب - والخرق هو الحائف المتجير

(٢٣٢)

لَمَّا رَأَيْتَ مَطِيَّهَا حَزَقًا خَفَقَ الْفؤَادُ وَكُنْتَ ذَا صَبْرٍ^(١)
وَتَبَادَرَتْ عَيْنَايَ بَعْدَهُمْ وَأَنْهَلَ دَمْعَهَا عَلَى الصَّدْرِ
وَمِنْ شَعْرَةٍ فِيهَا وَقَدْ جَدَّ بِهَا الرَّحِيلُ

كَدْتُ يَوْمَ الرَّحِيلِ أَقْضَى حَيَاتِي لَيْتَنِي مَتُّ قَبْلَ يَوْمِ الرَّحِيلِ
لَا أَطِيقُ الْكَلَامَ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ — دَمْعِي يُسِيلُ كُلَّ مَسِيلِ
ذَرَفَتْ عَيْنُهَا فَفَاضَتْ دَمْعِي وَكَلَانَا يَلْقَى بَلْبًا أُصِيلُ
لَوْ خَلَّتْ خَلَّتِي أَصَبْتُ نَوَالًا وَحَدِيثًا يُشْفِي مَعَ التَّنْوِيلِ
وَلِظَلِّ الْخُلُخَالِ فَوْقَ الْحَشَايَا مِثْلَ أَثْنَاءِ حَيَّةٍ مَقْتُولِ^(٢)
وَلَقَدْ قَالَتْ الْحَبِيبَةُ لَوْلَا كَثْرَةُ النَّاسِ جُدْتُ بِالتَّقْبِيلِ
لَيْسَ طَعْمُ الْكَافُورِ وَالْمَسْكِ شَيْبَا ثُمَّ عُلاَّ بِالرَّاحِ وَالزَّنْجَبِيلِ^(٣)
حِينَ تَنْتَابُهَا بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا طُرُوقًا إِنْ شُدَّتْ أَوْ بِالْمَقِيلِ^(٤)

(١) الحزق جمع حزقة بالكسر وهي الجماعة (٢) الحشايا جمع حشية وهي الفراش المحشو — وأثناء الحية مطاويها وتضاعفها إذا تثنت ، وجرى وصفها مذكرا إذ كانت لا تقصر على التأنيت (٣) شيبا : مزجا من الشوب وهو المزج — وعلا : من العلل بفتح الحين وهو الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا ، يقابل النهل بفتح الحين وهو الشرب الاول — والمراد من عل الكافور والمسك بالراح والزنجبيل اضافة الأخيرين الى الاولين ليتألف منها الشراب (٤) تنتابها : تزورها . من الانتياب وهو الاتيان مرة بعد أخرى — والطروق : زيارة الليل — والمقيل : راحة الظهيرة . والشاعر يصف محبوبته بطيب الفم في وقت القيلولة وعند هداة الليل لان هذا أدل على قوة الصبا إذ كانت الافواه تتغير عادة عند الهجوع

ذلك ظنى ولم أذق طعم فيها لا وما فى الكتاب من تنزيل
رَبْعَةٌ^١ أو فَوْيْقَ ذلك قليلاً ونؤوم الضحى وحق كسول^(١)

وقال فيها أيضاً هذه الرائية :

يا خليلي شفنى الذِّكْرُ ومُحْمول الحى إذ صدروا
ضربوا نُحْمِر القباب لها واديرت حولها الحُجْرُ
لو سُقِ الاموات ريقتها بعد كأس الموت لا تشرُوا
ويكاد الحَجَلُ من غصصٍ حين تستأنيه ينكسر^(٢)
ويكاد العجز ان نهضت بعد طول البُهر ينبت^(٣)
أخيام البئر منزلهم أم همُّ بالعمرة ائتمروا^(٤)
أم بأعلى ذى الأراك لهم مَرَبِعٌ قد جاده المطر^(٥)
سلكوا شعب النُّقَاب بها زُمْرًا تحتتها زُمُرٌ^(٦)

(١) ربة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة - ونؤوم الضحى : كناية عن الترف إذ لا تنام الضحى إلا المرأة المخدومة التى يقوم وصائفها بما يعينها من مختلف الشئون ، وهى لذلك مكسال (٢) الحجل بالكسر والفتح الحُلْجَالُ - والغصص : الضيق - وتستأنيه : تشبته (٣) البهر : انقطاع النفس من الاعياء - والمتر : القطع (٤) البئر : اسم لعدة اماكن أكثرها بالمدينة ، منها بئر رومة وبئر رثاب وبئر عروة وبئر غندق . ولم نعرف بالضبط ما يقصد الشاعر من بين هذه الآبار (٥) وادى الأراك قرب مكة . قال ياقوت : وذو أراك فى الأشعار (٦) النقاب موضع من أعمال المدينة يتشعب منه طريقان الى وادى القرى ووادى المياه - وتحتت : تسوق

وطرقت الحي مكتماً (١) ومعى غضب^ه به أثر^ه (١)
 وأخ^ه لم أخش نبوته^ه بنواحي أمرهم^ه خبر^ه (٢)
 فاذا ريم^ه على فرش^ه في حجال الخز^ه مختدر^ه (٣)
 حوله الأحراس ترقبه^ه نوم^ه من طول ماسهروا
 شبه^ه القتلى وما قتلوا ذلك إلا أنهم سمروا (٤)
 فدعت بالويل آونة حين أدناني لها النظر
 ودعت حوراء أنسة^ه حرة من شأنها الخفر^ه (٥)
 ثم قلت لآتي معها وريح نفسي قد أتى عمر
 ماله قد جاء يطرقنا ويرى الأعداء قد حضروا
 لشقائي كان علقنا^ه ولحيني ساقه القدر^ه (٦)
 قلت عرضي دون عرضكم^ه ولمن ناواكم الحجر^ه (٧)

(١) الغضب: السيف القاطع—وأثر السيف افرنده (٢) النبوة: الجفوة—وخبر: خبير

(٣) الحجال: جمع حجلة بفتح الحاء وهي قبة تزين للعروس— ومختدر: ناعس

(٤) وسمروا من السمر وهو حديث الليل . وقد يراد به شرب الخمر

(٥) الخفر: شدة الحياء (٦) الحين بالفتح الهلاك (٧) العرض هنا النفس

ومنه قول جبران :

فان أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

وقد يراد به الجسد كما في الحديث (يجرى من أعراضهم مثل ریح المسك)

ونواواكم : من المناواة وهي المعادة

(٢٣٥)

أزواجها

كانت فاطمة بنت عبد الملك تحت عمر بن العزيز ، فلما مات عنها
تزوجها داود بن سليمان بن مروان ، وكان قبيح الوجه ، فقال في ذلك
موسى شهوات

أبعد الأغر بن عبد العزيز قريع قريش إذا يذكر
تزوجت داود مختارة ألا ذلك الخلف الأعور

فكانت إذا سخطت عليه تقول : صدق والله موسى ، إنك لأنت

الخلف الأعور - فيشتهمه داود

ولفاطمة بنت عبد الملك أحاديث في فتنة من عاصرها من

الشعراء ، كنا نود ذكرها لولا إيثار الإيجاز